الشجرة الخبيثة

The Evil Tree

تأليف : أ. أسامة بن أحمد عثمان

رواية منتخبة من الجامعة
كلية الاداب

The Evil Tree The Evil Tree The Evil Tree The Evil Tree The Evil Tree The Evil Tree The Evil Tree

الجامعة الالكترونية للدراسات العليا
Electronic University of Postgraduate Studies
Https://sites.google.com/view/eu-colleges-and-sections

الرقم الليبي الموحد للكتاب الالكتروني
LSBN 888-7-0000046-25
8 887000 004625

الشجرة الخبيثة

رواية

المؤلف / أسامة بن أحمد عثمان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات الجامعة الالكترونية للدراسات العليا

كلية الاداب

LSBN 888-7-0000046-25

8 887000 004625

الاهداء ...

الى أبي وأمي

اللهم احفظ أمي وأبي،

وإخواني وأصدقائي،

واحفظ بلاد المسلمين من الشرك،

وجنّبها مغبّات الظلم والطغيان.

كان يا ما كان، في مكانٍ ما على الأرض، وفي زمانٍ لا يهمّ إن مضى أو عاد، نبتت شجرة.

لم تكن الشجرة المشكلة، بل ما زُرع حولها من أفكار.

ففي عالمٍ ينهار فيه العدل، وتُرفع فيه رايات القانون، يبقى السؤال معلقًا:

من يحدّد العدل؟ ومن قال إن القانون عادل؟

وهل يحتاج العدل إلى ورقة مختومة، أم إلى قلبٍ ينبض بالرحمة؟

لو تُرك الأمر للقلوب، لربما تقاسمت الأشجارُ ثمارها بعدل.

لكن حين تحكم الأقلام قبل الضمائر، قد تصبح الشجرة... خبيثة.

الفصل الأول

" في البدء كانت شجرة "

في صحراء قاحلة، لا فيها من يهبّ نسيم، ولا يدبّ فيها كائن، استيقظ رجل فقير يُدعى إلدران.

لا يملك من الثياب ما يستر به عورته، ولا من الطعام ما يتجاوز به صيد يومه.

يعيش حياة بدائية حدَّ القسوة؛ يأكل ما يصطاده نيئًا، فلا وقت ولا رفاهية لإشعال نار.

كهفه، إن سُمّي كهفًا، لا يحميه من رياح الليل، ولا يستر رأسه عود خشب.

أيامه تتكرر، لا جديد فيها، سوى الجوع المعتاد.

وكان لإلدران رفيقٌ يُدعى كالو.

رفيق صمتٍ ووحشة، يتبادلان الحديث النادر، ويتقاسمان الخوف من الطريق وما فيه.

يدافع أحدهما عن الآخر، لا لأن الحياة تستحق، بل لأن الوحدة أقسى.

وُلد إلدران لأب وأم لم يصمدا طويلًا؛ الموت في مثل هذه الأرض لا يحتاج إلى دعوة.

أما كالو، فقد فقد والده أيضًا، لكنه كان يعود ليلًا إلى كهفٍ آخر، حيث تنتظره أم مقعدة.

ولأجلها، تعلم إشعال النار، لا ليأكل، بل لتأكل.

كان يطهو ما يصطاده، ببطء وصبر، ليُبقي أمّه على قيد الحياة يومًا آخر.

لكنّ الصداقة في الصحارى لا تدوم طويلًا.

وكانت الشعلة التي أشعلت الخلاف بين إلدران وكالو هي تقسيم ما يصطادونه من حيوانات شحيحة.

كطبيعة البشر حين تشتد بهم الحاجة، ينهش بعضهم بعضًا قبل أن ينهشهم الجوع.

اتهم إلدران رفيقه كالو أن ما يستهلكه هو وأمه يفوق العدل، وأن رائحة اللحم المطهيّ تبعد الحيوانات من محيطهم، فتحرمه من الصيد.

فقرّرا أن الانفصال أهون من الخصام، والوحدة أرحم من الحرب.

فاقتسما الأرض القاحلة، وراح كلٌّ إلى رقعته يصطاد منها ما استطاع، واتفقا على ألا يَغِر أحدهما على الآخر، ولا يتعدى حدوده، ولا يمد له يدًا – لا بالشر ولا بالعون.

لكنّهما اتفقا أيضًا: إن جاء خطر من خارج، فسيتحدان كما كانا.

مضت سنون، وازداد القحط قسوة، حتى صار ينهش تلك الصحراء كما ينهش الجوع لحم الفقراء.

عندها، قرر إلدران وكالو الهجرة نحو أرضٍ أخرى، عساهما يجدا فيها ما يسد الرمق.

لكن الطريق لم يكن رحيمًا.

لم تحتمل أم كالو وعورة الرحيل، فماتت في منتصف الطريق، قبل أن تطأ قدمها الأرض الجديدة.

انكمشت الدنيا في عيني كالو، وبكاه الحزن.

ولو علم أنها ستموت، لما خطا خطوة واحدة خارج الكهف؛ حمل في قلبه وزر رحيلها، وشعر أنه دفعها إلى قبرها بقدميه.

دفن كالو قلبه في أرضٍ قاسية لا ترحم، وأكمل طريقه وعيناه دامعتان.

في كل خطوة، كان يدرك أنه يبتعد لا عن جثمانها فقط، بل عن فرصة زيارتها، والحديث معها، والاعتذار منها.

لقد فقد كالو حتى رفاهية أن يقف على قبر أمه.

...

وحين وصلا أخيرًا، إلى الأرض الجديدة، اتفقا من البداية على اقتسامها دون خصام أو نزاع. .

لكن هذه المرة، لم يكونا وحدهما..

ظهر رجلٌ ثالث، يُعرف بين أهل الأرض باسم ❖"الحاكم العادل".

رجلٌ في ملامحه شيء من الحكمة، وفي كلامه ما يريح السامع.

كان يسكن بجوار الأرض التي اختارها كالو وإلدران، ورحّب كثيرًا بفكرة اقتسامها..

بعد سنوات طويلة مضت،

كان إلدران لا يزال يجلس على أطراف أرضه القاحلة، يصطاد ما استطاع من حيوانات قليلة، وينهش لحمها نيئًا كما اعتاد..

أما كالو، فكان يحفر الأرض والصخر، يجرب، يبحث، يبتكر طرقًا جديدة لبلوغ قوت يومه. .

كان يؤمن في قرارة نفسه أن هذه الأرض لا يمكن أن تكون بكل هذا الجفاف قسوةً خالصة؛ لا بد أن تحت ترابها شيئًا مخفيًا... شيئًا يجهله هو، ويجهله إلدران أيضًا..

كان صوته الداخلي يهمس له بأن الرحمة لم تُمحَ من الأرض تمامًا، بل اختبأت... تنتظر من يكشفها.

...

وعلى حين غفلة،

ظهرت شجرة..

لا أحد يعرف كيف نبتت .

ربما كانت الأرض قد باركت كالو، أو ربما كانت الأرض نفسها قد ضاقت بسكوتها. .

لكنها نبتت... ووقفت خضراء وسط الصحراء اليابسة كأنها وعد.

ظهرت الشجرة الجميلة تلك في أرض كالو،

فأقبل عليها يسقيها، ويحميها، ويرعاها حتى كبرت وأثمرت..

كان كالو ينظر إليها بشغف الطفل، وعين العالم. .

لقد أدرك حينها أن لحوم الحيوانات المطهية ليست وحدها من نعم الله في الكون .

كان هناك ما خفي عنهم، وما انتظرهم طويلًا ليُكشف..

وعلى الجانب الآخر،

كان إلدران يتجرّع مرارة الجوع.

بدت عليه أعراض الموت البطيء، وتلك الرائحة التي تسبق النهاية...

رائحة الموت لا تُشم فقط، بل تُحسّ، تُزحف إليك من بعيد قبل أن تبلغ أنفك.

ولمّا عجز عن كبح طوفان الجوع،

كفر إلدران بالمواثيق والعهود التي عقدها مع كالو.

وقرر أن يَغِرّ عليه، ليلًا.

ولأن الهلاك حين يقترب، يوقظ الشيطان النائم،

ابتكر إلدران سلاحًا فتاكًا، لا ليقاتل، بل ليُرعب.

أراد أن يجعل كالو ينهار، ويُسلّم له الأرض صاغرًا.

...

وفي تمام الرابعة فجرًا،

في ساعةٍ اعتادت أن تحمل نسمات الطمأنينة،

جاء الفجر هذه المرة محمّلًا بالخيانة.

هجم إلدران على كالو،

استولى على أرضه، واقتلع ثمارها،

أكل منها بالقوة،

وبسط هيمنته على ما ليس له فيه حقّ..

وبقي كالو، عاجزًا عن صدّ الهجوم،

كأن الأرض التي رعاها، لفظته كما لفظت أمّه قديمًا..

تراجع كالو إلى طرف الأرض، لا لجبنٍ فيه، بل لانكسارٍ لا دواء له.

كيف لرجلٍ غرس الشجرة، وسقاها، وأحبها، أن يراها تُنهب أمامه دون أن يقدر على شيء؟

كان يرى في كل ثمرة تُقطف، جزءًا من كرامته يُنتزع.

مرّت أيام ثقيلة،

بات فيها كالو متشردًا في أرضٍ زرعها بيده،

يراقب إلدران وهو يأكل ويضحك، كأن الشجرة كانت له منذ البدء.

وفي إحدى الليالي، جلس كالو جوار الجذع، يحتضن جذوره التي لم تُخلع بعد،

وبكى كما يبكي من فقد أمّه للمرة الثانية.

لكن هذه المرة، لم يبكِ طويلًا.

رفع رأسه، وقال في نفسه:

"إن كان هذا العالم فيه من يدّعي العدل، فليكن هو الحكم بيننا".

...

وفي اليوم التالي،

وصل الخبر إلى رجل يسكن بجوار الأرض:

الحاكم العادل.

رجلٌ ذو لحية ناعمة، وعيونٍ لا ترى، بل تزن.

يُعرف بالحكمة، ويُقال إنه لا يرفع صوته أبدًا.

يأتي الناس إليه من بعيد ليحلّ نزاعاتهم، ويخرج الجميع من مجلسه وهم يظنون أنهم نالوا حقهم – حتى لو لم يفهموه.

استدعاه كالو، وجلس أمامه بثيابٍ ممزقة، وصدرٍ مكسور.

حكى ما جرى. كلّه. بصوتٍ منخفض، وكلماتٍ مرتعشة.

ثم جاء إلدران.

بجسده الممتلئ، وعينيه الجافة، وقال:

أنا أكلت ما نبت على أرضي، لأنه لم تكن هناك حدود واضحة .

ثم إن كالو لا يعرف كيف يستثمر الشجرة، هو يزرع، لكنه لا يُحسن القطف ولا التوزيع.

الأرض كانت ستُهمل، وأنا أنقذتها.

...

ظل الحاكم صامتًا، يحرّك أصابعه فوق لحاه، وينظر في الأفق.

ثم قال كلمته:

بما أن الشجرة نبتت في أرض كالو،

فإن من العدل أن يستمر هو في الاعتناء بها،

وأن يكون القطف لإلدران،

لأنه الأقدر على التصرف بالثمار، وتنميتها.

...

نظر كالو إليه في ذهول.

ونظر إلدران في صمتٍ لم يخلو من ابتسامة.

ثم ختم الحاكم:

> " وهكذا يتحقق العدل :

> من يحسن الزرع، يزرع،

> ومن يحسن التوزيع، يوزّع".

...

لم يعترض كالو،

لكن في قلبه، شجرة أخرى بدأت تنمو ...

شجرة من غضب، لا ماء لها إلا الذل، ولا ثمر لها إلا الانتظار.

الفصل الثاني

" ثمار لا تُشبع "

استيقظ إلدران ذات صباح،

وشتّان بين استيقاظه اليوم، واستيقاظه حين كان جائعًا، عاري الجسد، في صحراء لا ترحم..

اليوم، صار يرتدي سراويل واسعة مطرزة،

تتدلى الحليّ من عنقه ومعصميه وأصابعه،

كل ما يمكن تزيينه... زُيّن .

وكل ما كان رمزًا للفقر، نُسي.

اتسع نفوذ إلدران، وازداد طموحه،

أصبح يعقد اتفاقيات مع أصحاب أراضٍ أخرى،

وكان الحاكم العادل دائمًا الوسيط والضامن.

شيّد القصور، وامتلك الخدم والحشم،

ومع ازدياد عددهم،

باتت أرضه تضيق... لا فقط عليه، بل على كالو أيضًا.

أما كالو،

فما زال يسكن كهفًا صغيرًا،

يرتدي ما يواري به جسده،

يخرج كل صباحٍ ليسقي الشجرة، وفقًا لحكم الحاكم العادل،

ثم يعود إلى صخورٍ باردة، جعلها فراشًا له.

...

لم يكتفِ إلدران بالسلطة،

بل بدأ يصدر الأحكام والقوانين.

فأمر المزارعين الذين يعملون تحت سلطته

بألا يأكلوا من لحم الحيوانات إلا بكمياتٍ محدودة،

وصرّح في بيانٍ عام:

> " إن الشجرة ثورة غذائية،
> ويجب علينا كجنسٍ بشريّ أن نحترم حقوق الحيوان،
> فهذه الأرض لم تُخلق للذبح"!

وهكذا، تحوّل إلدران من صيّادٍ بدائي،

إلى "رجل دولة" رقيق المشاعر،

يملك بدلًا من الشجرة مئات،

ويُصدر قوانين تحمي الحيوان، والشجر، وكل ما يدبّ على الأرض.

كل هذا، كما قال،

بفضل قلبه الكبير، وحسّه المرهف،

الذي لم يحتمل أن يُؤذى أي مخلوقٍ ضعيف.

...

لكن، في الركن المهجور من الأرض،

كان هناك مخلوق واحدٌ يُؤذى كل يوم ...

اسمه: كالو.

في تمام العاشرة صباحًا،

اقترب كالو من الشجرة التي كُتب عليه أن يسقيها دون أن يذوق من ثمارها شيئًا،

كمن ربّى أبناءَه حتى اشتدّوا، ثم جاؤوه فانتزعوه، وقالوا: لم تكن يومًا والدنا.

مدّ يده، كما لم يفعل من قبل،

في لحظة تمردٍ لم يعتدها... لا هو، ولا الشجرة ذاتها .

قطف ثمرة واحدة، فقط ما يسد رمقه،

وكان ذلك محرّمًا عليه.

لكن الشجرة، من شدة الدهشة،

كأنها صرخت .

كأن جذورها اهتزّت، وأوراقها ارتعشت،

كأنها لم تعرفه، أو خافت منه، أو أنكرت عليه أبوّته.

رآه أحد حراس إلدران،

فأُخذ كالو مقيّدًا إلى سيد الأرض،

ليُحاكم.

...

قبل حتى أن يصدر الحكم،

كان التعميم قد انتشر في كل الجهات:

- " كالو إرهابي .
- يثير الفوضى،
- يُحرّض الناس على الحكام،
- ويزرع الخراب حيث مرّ .
- يُمنع من دخول أي أرض،
- ويُجرَّد من كل صفة إنسانية".

...

بات منبوذًا،

مكروهًا،

أصبحت صورته على الجدران مرفقةً بعبارة :

"*خطر على أمن المنطقة*".

...

ثم خطب ❖الحاكم العادل❖ في الناس، قائلًا:

> " إن همجية كالو وتعدّيه على ما لا يملكه

> يُعد تهديدًا صريحًا لأمن المنطقة وسلامها .

> التمرد لا يُسامح .

> وكل من يظن أنه فوق القانون،

> سنُنزله إلى قاعه .

> ليكون عبرة ...

> فمن يأمن العقوبة، يفسد".

...

وساد التصفيق .

وساد الخوف .

وساد الظلم... باسم العدالة!

حكمت المحكمة بقطع يدي كالو، جزاءً لتمرده، ولما أحدثه من لغط في مجتمعٍ مسالم، لم يعتد مثل هذه الهمجية.

وقد نال الحكم مباركة من كل أطياف الناس،

فعامة الناس — يا صديقي — لا يهمهم من الدنيا سوى طعامهم وشرابهم ومسكنهم،

ولو كان طعامهم من لحم بشر، وشرابهم من دماء مظلوم، ومسكنهم على عظام مسكين!

...

في صباح يوم التنفيذ، أمر إلدران أن يُنفذ الحكم داخل غرفة مغلقة،

خوفًا من أن يرى الناس وجه كالو، وهو يُنزف بلا يدين،

أن يروا عينيه تبكي، وجلده يتمزق، ودمه يلطّخ الجدران،

خوفًا من أن يفقدوا شهيتهم أثناء الغداء!

فالقرار في الأوراق شيء،

لكن العيان قد يفسد عليهم \"الحياة الراقية المتحضّرة\" التي يتغنون بها.

...

وازداد تعتيم إلدران على الحدث،

فاختار أن يكون يوم تنفيذ الحكم هو نفسه يوم المهرجان السنوي الكبير،

الذي يُكرّم فيه العمال، بحضور كبار القوم،

الحاكم العادل نفسه، وصفوة أهل الأرض.

...

وقف إلدران على المنصة، متأنقًا، مُبتسمًا،

وألقى خطبة عصماء عن أهمية احترام العامل،

وتوفير كل سبل الراحة له،

وقال بصوت مملوء بالعاطفة:

> " نحن نُؤمن بحقوق الإنسان، والحيوان، والنبات،

> فهذه هي الأسس التي بنيت عليها إمبراطوريتنا العظيمة ...

> التي بدأت — كما تعلمون — بشجرة مباركة"\.

ثم أشار بيده نحو الشجرة،

كانت تقف هناك، على بعد خطوات،

ترتعش.

كأنها سمعت ما قيل عنها،

كأنها أرادت أن تصرخ :

> لا تنسبوني إليه، لا تنسبوني إليه!أو لعلها — في لحظة حنين — كانت تحاول أن تمد أحد أغصانها إلى كالو ...

ذلك الرجل الذي زرعها، وسقاها، واحتضنها.

لكن كالو لم يعد يملك يدين ليحتضن بها شيئًا .

فالإنسان، حين يُقطع، لا يفقد فقط قدرته على الفعل،

بل يُحرم من أبسط الحقوق: أن يمسح دمعته، أن يغطي جسده، أن يضم نفسه.

أو لعل الشجرة كانت تبكي عنه،

تبكي عنّا جميعًا،

فنحن لا نُبقي إلا على ما يقتلنا بأيدينا

الفصل الثالث

" المقاومة حق "

أمر إلدران بنقل كالو إلى بيت صغير،

وعيّن له حارسين شخصيين،

يهتمان بطعامه وشرابه،

ويحرصان على راحته الصحية كما يُفعل مع كبار السن أو من انتهت صلاحيتهم.

وأشادت وسائل الإعلام الرسمية بهذه الخطوة،

واعتبرتها ❖أعظم صور التسامح❖ في العصر الحديث!

> "\ من يُطعم عدوه بيديه؟

> من يرحم من تجرأ عليه؟

> إلدران فعلها... وحده"\.

...

وخطب رجال الدين في الناس قائلين:

> "\ هذا هو خُلق الأنبياء ...

> هذا هو الصفح الذي لا يصدر إلا من نبيّ،

> أو رجلٍ رقّ قلبه حتى نافس الملائكة .

> وإن ما تنعم به بلادنا من إعمارٍ ورفاهٍ

> ما هو إلا ثمرة رضا الربّ عن هذا الحاكم الزاهد،

> الذي سامح في حقه، ولم يتبع هوى الانتقام...

وفي الجهة المقابلة،

أقيمت ندوة بعنوان :

"*علمانيون بلا حدود: كيف أذعن الدين لإلدران؟*"\

> "\ لقد نجح إلدران في ترويض الخطاب الديني،

> وإبعاده عن التحريض،

> وحصره في أروقة المساجد،

> ليبني دولةً لا تُملى عليها شروط من السماء ...

> بل تقرر ما تراه الأرض مناسبًا...

وهكذا، استولى إلدران على الخطاب الإعلامي بالكامل .

وحد الأصوات المتناقضة، وجعل اليساري واليميني، المتدين والعلماني،

يركعون على مذبح تمجيده.

فصار يملك القلوب،

قبل أن يحكم الأجساد.

هكذا تبنى الإمبراطوريات: لا بالسلاح وحده، بل بالمجد المصنوع من الكلام.

وعلى الجانب الآخر، حين يحلّ الظلام وتغفو العيون في دفء البيوت، تتدفّق المشاعر، ويشفّ القلب مما ران عليه، ويزهد في ما كان، كأن الليل يزيح الغشاوة عن البصائر.

في تلك السكينة، سمع الحارسان اللذان عيّنهما إلدران، القصة... ولكن لأول مرة من منظور مختلف.

لقد رواها لهم كالو.

صُعقا لما سمعا، وارتجّ في صدريهما شيء نسيه الزمن، فمال قلبيهما إليه، وبدآ في مساعدته خفيةً.

وبعد أيام من التخطيط الصامت، استطاع كالو، بجسد أنهكه الأسر، أن يفرّ من أرض سجنه.

رافقه الحارسان، ومعهما عائلتاهما، وبضعة رجال ونساء صدّقوه، بعدما تسربت قصته في الخفاء.

اختار هؤلاء أن يُبايعوه حاكمًا عليهم، لا لأنّه الأقوى، بل لأنهم رأوا فيه الحق.

بايعوه على أن لا يخذلوه، ولا يتركوه وحيدًا، وأن يموتوا في سبيل قضيته إن لزم الأمر.

> " لسنا نُبايعك لأنك تنتصر، بل لأنك على حق، وإن كُتب لنا أن نسقط، فلن يكون ذلك ونحن منحني الرؤوس".

ومنذ ذلك الحين، بدأ ذاك المعسكر الصغير في التدريب، يتعلمون القتال، ويخوضون مناوشات خفيفة، ينتزعون فيها من جنود إلدران بعض السلاح والذخيرة.

كانوا يعدّون أنفسهم لليوم الموعود... يوم استرداد ما سُلب بالقوّة.

بلغت الأخبار إلدران، ففزع.

ولم يجد أمامه سوى الحاكم العادل، فطلب منه الجيش والسلاح لمواجهة هذا "الخطر" الذي، إن لم يُكبح، قد يبتلعهم جميعًا.

> " الثورات الصغيرة تبدو عبثًا في مهدها، حتى تتعاظم وتُزلزل العروش".

سار جيش إلدران، تتبعه الجيوش المتحالفة، كأنهم في زحف مقدّس لا يوقفه شيء، حتى بلغوا أرض كالو.

حاصروها، وخنقوها كما يُخنق الطائر في عشه.

قطعوا عنها الطعام والماء، ووجّهوا رسالة قاسية مغلّفة بالوعد: "سلّموا السلاح... وسلّموا كالو، ولكم العفو والمغفرة".

لكن الناس، رغم الوهن، رفضوا الانصياع... ورفضوا خيانة كالو.

كان الجوع كالشيطان، ينهش الأجساد الصغيرة، لا يستثني طفلًا ولا عجوزًا.

والموت؟ بدأ يمرّ على الخيام، يطرق الأبواب بهدوء، ويأخذ معه واحدًا تلو الآخر.

كالو ظلّ صامدًا، متمسكًا بموقفه، لكن وجوه الناس بدأت تتغير.

كانوا ينظرون إليه كمن في رقبته كل نفس تُزهق، وكل طفل تذبل عيناه من الجوع، وكل امرأة تجفّ دموعها وهي تهدهد صغيرها بلا حيلة.

ثم بدأت الأصوات تعلو في أرجاء المعسكر:

> " سلّم كالو، فقد أوشكنا على الفناء!

لسنا نملك سلاحًا كافيًا، وإن قتلنا منهم مئة، سيبيدوننا في ليلة واحدة".

الانقسام أخذ ينخر الجسد من الداخل.

وبعد عامين من الحصار، قرر إلدران إدخال بعض المساعدات... شحيحة، بالكاد تكفي ليوم.

لكنها لم تكن خالصة النية؛ فقد زُرعت الجِرار بجواسيس، نُسخ بشرية ناعمة، مهمتها قلب الرأي العام، وبث الشك، وزرع الفتنة داخل معسكر كالو.

> " إن العدوّ لا يحتاج دائمًا إلى سيف... يكفيه جائعٌ غاضب، وجاسوسٌ بليغ".

هكذا بدأت المقاومة تتآكل، لا بالسيوف، بل بالكلمات والبطون الفارغة.

وفي ليلة بلغ فيها الظلام مداه، حتى شعرت به القلوب قبل الأبصار،

خرج الجواسيس من جحورهم...

وصلوا إلى كالو، وتعرّفوا إلى مكانه.

كان وحده في تلك اللحظة، ممزق اليدين، تائهًا بين أمل يحتضر، ويأس ينهش ما تبقى من قلبه.

كانت النار أول ما أُشعل، لا في الأرض، بل في روحي الحارسين...

اللذين كانا شرارة الخلاص ذات يوم.

أُحرِقا أحياء.

ثم اقتحموا خيمة كالو، وقبضوا عليه، ومارسوا عليه عنف المنتصرين الذين يخافون من فكرة لا تموت.

قاوم.

قاوم حتى آخر قطرة وجع.

لكنه في النهاية، سقط...

ليس لأنه أضعف، بل لأن للحق لحظات يُهزم فيها حين تكون كفة الميزان في يد الباطل.

> " سقط كالو، ولم يسقط ما مثّله".

نُفّذ الإعدام، وسُمي ذلك "نهاية الإرهاب."

فُتحت أبواب معسكره الصغير كأنها بوابات غنائم، ودخل إلدران بجنوده، يجرّ خلفه مجازر لا تُعد.

تم ضمّ الأرض... فقط الأرض.

أما الشجر، والحجر، والبشر...

فقد أُبيدوا بلا تفريق، حتى الجواسيس الذين خدموه، قضوا بنيران صديقتهم.

احتفل إلدران، وصعد منصة من رماد، وألقى خطبة عصماء يستعرض فيها جيشه العرمرم، ويشكر الدول الحليفة التي "أطفأت نار الفتنة"، ولو بإشعال النار في أجساد الأبرياء.

> " لقد انتصر إلدران... انتصر كما ينتصر الجزار على الخراف".

لكن...

رغم كل شيء،

أبت الشجرة إلا أن تموت مع صاحبها.

ففي اليوم التالي لموت كالو،

وُجدت الشجرة مقطوعة...

لا بيد كالو، ولا بيد أتباعه.

بل بيد أُناس من عامة الشعب... ممن لم يروه قط،

لكنهم آمنوا به، حين وصلهم صداه.

> " كان يكفي للمؤمن أن يؤمن دون أن يرى،

لكن من قرر ألا يؤمن... لن تكفيه كل المعجزات".

قطع أولئك الناس الشجرة.

لم يكونوا من معسكر كالو، ولم يحملوا سلاحًا،

بل كانوا من عامة الشعب،

من الذين خُدعوا ذات يوم بأكاذيب إلدران...

ثم جاءت إليهم القصة،

وصلت إليهم كهمسة، كأغنية حزينة عبر الريح،

فآمنوا بها دون أن يروا صاحبها.

آمنوا، وكأن قلوبهم عرفت الحقيقة منذ البدء، ولكنها كانت تنتظر من يوقظها.

قطعوا الشجرة،

ثم نصبوا مكانها لافتة خشبية بسيطة،

كتبوا عليها بدموعهم قبل حبرهم:

> " كلمةً خبيثةً كشجرةٍ خبيثة، اجتثّت من فوق الأرض، ما لها من قرار".

(سورة إبراهيم - آية 26)

لم تكن مجرد آية...

بل إعلانًا عن بداية جديدة — مقاومة من نوع آخر، بلا رايات، ولا جيوش،

مقاومة تشبه النبض الخافت الذي لا يسمعه أحد، لكنه لا يتوقف.

كان إلدران يراقب المشهد من قصره العالي،

ومن خلف نوافذ الزجاج المموّه،

وكان قلبه، لأول مرة، يرتجف...

ليس خوفًا من جيوش،

ولا من تمردات مسلّحة،

بل من ذلك العدو الخفي الذي بدأ يُطلّ عليه...

عدو لا يملك اسمًا ولا وجهًا،

لكنه يعيش في النظرات، في الكلمات العابرة،

في الرسائل المهرّبة، في القصص التي لم يكتبها أحد لكنها تنتقل من فم إلى فم، ومن قلب إلى قلب.

أدرك في قرارة نفسه أن المعركة لم تنتهِ.

لقد قتل كالو، وأحرق معسكره، وسوّى الشجر بالأرض،

لكنّ شيئًا ما بقي...

بقي كأنفاس الراحلين على صدورنا،

كالصوت الذي لا نعرف من أين يأتي،

بقي لأنه تحرّك من "نص" لا يتحرّف،

من "وحي" لا يتبدّل،

من وعد إلهي بأن للظلم نهاية، وإن طال به الأمد.

> " كان كالو بلا يدين... وبلا قدمين...

لكنّه قاوم بما تبقّى.

وما تبقّى، كان يكفي".

ولذا، فإن إلدران الآن، في لحظات وحدته، لا يخاف من الجيوش،

بل يخاف من فكرة،

من دعوة تُهمس في قلب طفل،

من امرأة تنشد حكاية لكالو في الليل،

من شجرة تُقطع... وتعود لتُزرع من جديد، في مكان آخر، وعلى يد أخرى.

هكذا تنتهي الرواية...

لكن لا تنتهي الحكاية.

هكذا كانت حكاية الشجرة...

شجرةٌ بدأت طيّبة، ثم تحوّلت بفعل البشر وظلمهم إلى شجرةٍ خبيثة،

حتى اجتُثّت من فوق الأرض... فما لها من قرار.

لكن الحكاية لا تنتهي هنا،

فكل شجرةٍ تُقتل، تنبت مكانها شجرة أخرى...

وكل ظلمٍ يُخمد، تُروى تحته حكاية مقاومة، تنتظر من يُكملها.

إلى أن نلتقي في أشجارٍ أخرى على هيئة حكايات...

اللهم احفظ أمي وأبي،

وإخواني وأصدقائي،

واحفظ بلاد المسلمين من الشرك،

وجنّبها مغبّات الظلم والطغيان.

دمتم بود،

معكم الفقير إلى عفو ربه:

أسامة.